وما سواها (300)

القيمة المفقودة والويلات الموعودة!!

د. صادق السامرائي
الطب النفساني، العراق / أمريكا

مجتمعاتنا تعاني غياب معنى قيمة الإنسان , وهذا الغياب جوهر التداعيات والمعاناة التي تبعد المواطن عن أبسط الحقوق الإنسانية , وتحوله إلى رقم على يسار مستعمرات الكراسي والطغيان. ومفهوم قيمة الإنسان يبدو وكأنه غريب ويصعب إستيعابه والتعبير عنه في المجتمع , مما يترتب عليه حالات ذات تداعيات فتاكة وقاسية.

وقد أغفله المفكرون والباحثون وتواصلوا بتحليلاتهم وتفسيراتهم المفضية إلى العدم . وما نحتاجه لكي نكون أن نعلي قيمة الإنسان ونكتشفه كقوة حضارية ذات دور كبير في صناعة الحاضر والمستقبل.

مجتمعاتنا تعاني غياب معنى قيمة الإنسان , وهذا الغياب جوهر التداعيات والمعاناة التي تبعد المواطن عن أبسط الحقوق الإنسانية , وتحوله إلى رقم على يسار مستعمرات الكراسي والطغيان

مفهوم قيمة الإنسان يبدو وكأنه غريب ويصعب إستيعابه والتعبير عنه في المجتمع , مما يترتب عليه حالات ذات تداعيات فتاكة وقاسية

أولا: أين قيمة الحياة ؟!!

عندما أقرأ في الصحف والمواقع والكتب , وأستمع للخطب والتصريحات والمحاضرات بأنواعها , وحتى الشعر , وأشاهد الأفلام والمسرحيات وأتابع المفكرين والمدعين بتمثيلهم لدين , أتساءل عن قيمة الحياة , وأمضي أبحث عنها فلا أجدها إلا فيما قل وندر!!

فواقعنا يكاد يخلو من قيمة الحياة في معظم النشاطات القائمة فيه , وبسبب هذا الغياب فأن السلوك الحاصل يعبّر عن الفقدان المروّع لقيمة الحياة.

فأبحثوا عن قيمة الحياة حولكم , هل ستعثرون على شيئ منها؟!!

مدن تغطس بالنفايات , متسولون يملؤون الشوارع والحارات , ومظالم وإنتهاكات لحقوق الإنسان , وإعدامات بالجملة , وأعمال إجرامية مفلوتة العنان , وبشر يبحث عن لقمة عيش ومرهون بالحاجات , ومكبل بالهموم والتهديدات , ويخشى أن يقول رأيه أو يطالب بحقوقه المتعارف عليها بين مجتمعات الدنيا.

فالرعاية الصحية متدنية , وأسباب راحة المواطن متردية , وقدرات توفير فرص حياة حرة كريمة مستعصية , ودفن الناس بالهموم متنامية , ولا جديد في الأمر , لكن الناس قد تعوّدت وصارت تحسب ما هي عليه من رزاءة الأحوال أمرا عاديا , أو أنها تشعر بأن عليها أن تستلطف الشر الذي هي فيه تفاديا لشر أقسى منه وأمَر , وبهذا فهي بلا قدرة على ممارسة الحياة , وإنما تذود عن حياتها من الحياة.

فالواقع السياسي يحتشد برؤى وتصورات تجريد الحياة من قيمتها وأهميتها , وإعلاء قيم الموت والضعف والقنوط , ومحق أي معنى إيجابي ودور ضروري لصناعة الوجود الأفضل والأجمل , ويساهم في هذه النمطية التصورية الذين يتاجرون بالدين ويمارسون رغباتهم المحكومة بأمّارة السوء الفاعلة فيهم , والتي تغريهم بالشرور وتزينها لهم على أنها الخير والفضيلة , وما هي إلا أوجه نتنة من الرذيلة الحمقاء.

واقعنا يكاد يخلو من قيمة الحياة في معظم النشاطات القائمة فيه , وبسبب هذا الغياب فأن السلوك الحاصل يعبّر عن الفقدان المروّع لقيمة الحياة

أبحثوا عن قيمة الحياة حولكم , هل ستعثرون على شيئ منها؟!! مدن تغطس بالنفايات , متسولون يملؤون الشوارع والحارات , ومظالم وإنتهاكات لحقوق الإنسان , وإعدامات بالجملة , وأعمال إجرامية مفلوتة العنان , وبشر يبحث عن لقمة عيش

الرعاية الصحية متدنية , وأسباب راحة المواطن متردية , وقدرات توفير فرص حياة حرة كريمة مستعصية , ودفن الناس بالهموم

ولهذا تجد الواقع يعج بالويلات والتداعيات والأحزان والدموع والتفاعلات السلبية القاسية , التي تستدعي الموت وتستحضر الأموات , وتساهم في إقامة مهرجانات البكاء وذرف الدموع والقسوة على الذات , والتفنن بالبدع النكراء الخالية من معنى الحياة , وتصويرها على أنها إثم وخطيئة وبلاء.

ولا يمكن للعرب أن يدركوا قوتهم وقدرتهم في الإنطلاق والتواكب والحضور المعاصر , إن لم يعيدوا للحياة أهميتها ويعترفون بقيمة وحقوق الإنسان , ويساهمون بإقامة العدل وعدم الركون إلى الظلم والتعبد في محاريب الكراسي , وعروش السلطان الذي ينفلت في أعماقه ألف شيطان وشيطان.

ولعنة الدنيا بما فيها على الذين يحتكرون الحياة , ويحرمون الملايين من تذوق بعض طعمها وقيمتها , بل ويخطفون منهم جوهرها ومعانيها , فالحياة لهم والموت للناس أجمعين , فأية أنانية وعدوانية يتم ممارستها على الناس المضطهدين؟!!

ثانيا: قيمة الإنسان والقول بالإيمان!!

"علّم الإنسان ما لم يعلم" 5:96

"خلق الإنسان" 3:55

"إذا آمن الإنسان بالله فليكن...لبيبا ولا يخلط بإيمانه كفرا"

الإنسان هو الكائن الحي المفكر الذي خلقة ربه من صلصال كالفخار وأحسن تصويره , وهو القادر على الكلام المفصل والإستدلال والإستنباط العقلي , وخصصت له سورة في القرآن برقم (76).

وقيمة الشيئ قدره , وقيمة الإنسان فضائله الدينية والخُلقية والإجتماعية.

فكل معتقد مهما كان نوعه وصنفه إذا لم يمنح الإنسان قيمته فلا يصلح أن يكون له , وإنما هو عليه وضده ويناهض وجوده وكينونته وصيرورته التفاعلية في محيطه الذي يسعى ويترعرع فيه.

والمجتمعات السعيدة الحية الراقية تحفظ للإنسان قيمته , ودوره المصان بالقوانين والدساتير والشرائع والمبادئ , والمعتقدات والضوابط والتقاليد وغيرها من آليات الضبط والتوجيه.

ولكي يكون المعتقد صالحا وسويا عليه أن يضع قيمة الإنسان وقدره في أولويات نصوصه ومنطلقاته , وكلما علت قيمة الإنسان , إرتقى دور ذلك المعتقد وتنامى وإزدهر.

فالعلاقة ما بين القيمة الإنسانية والمعتقد ذات مواصفات طردية , فكلما زاد أحدهما زاد الآخر , وكلما نقص أحدهما نقص الآخر.

والإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان , والإيمان هنا يعني "آمنت بالله وكتابه ورسوله".

ولكي يتحقق التعبير عن الإيمان يتوجب الإقرار بقيمة الإنسان الذي خلقه الله , وإذا تم إنكار قيمة الإنسان بطل الإيمان , ذلك أن الدين والرسالات جاءت للإنسان وتوجهت نحوه , وهذا يبين مقامه عند خالقه ودرجة إهتمامه به , فكل دين يخاطب الإنسان , ويأخذ بيديه نحو التعبير عن الفضائل وتجنب الرذائل , والإقرار بالإيمان بخالقه الرؤوف الرحيم.

ومن أولويات الحفاظ على قيمة الإنسان في المجتمع , توفير الحاجات الأساسية , وتثقيفه وتعليمه والعناية الصحية به , وتوفير العمل الذي يصون كرامته ويساهم في رقي سلوكه وتنمية خلقه , وعدم الإعتداء على حقوقه , ومنحه حرية التعبير عمّا يراه ويعتقده , وأن يكون العدل ميزان التعامل ما بين الناس , وبهذا تصان القيمة ويتحقق الإيمان بالمعتقد أيا كان.

أما أن تهدر قيمة الإنسان , وتصادر حقوقه ويُستعبَد بالحرمان من الحاجات , فهذا هو الكفر بعينه والظلم والإستبداد , ولا يمكن لمن يقوم بهذا العمل أن يكون قريبا من الإيمان , بأي دين أو معتقد يدّعيه , وإنما هو من المتاجرين بالدين , ومن أفسد الفاسدين.

متنامية , ولا جديد في الأمر

الواقع يعج بالويلات والتداعيات والأحزان والدموع والتفاعلات السلبية القاسية , التي تستدعي الموت وتستحضر الأموات , وتساهم في إقامة مهرجانات البكاء وذرف الدموع والقسوة على الذات , والتفنن بالبدع النكراء الخالية من معنى الحياة

لا يمكن للعرب أن يدركوا قوتهم وقدرتهم في الإنطلاق والتواكب والحضور المعاصر , إن لم يعيدوا للحياة أهميتها ويعترفون بقيمة وحقوق الإنسان , ويساهمون بإقامة العدل وعدم الركون إلى الظلم والتعبد في محاريب الكراسي , وعروش السلطان

كل معتقد مهما كان نوعه وصنفه إذا لم يمنح الإنسان قيمته فلا يصلح أن يكون له , وإنما هو عليه وضده ويناهض وجوده وكينونته وصيرورته التفاعلية في محيطه الذي يسعى ويترعرع فيه

لكي يكون المعتقد صالحا وسويا عليه أن يضع قيمة الإنسان وقدره في أولويات نصوصه ومنطلقاته , وكلما علت قيمة الإنسان , إرتقى دور ذلك المعتقد وتنامى وإزدهر

الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان , والإيمان هنا يعني "آمنت بالله وكتابه ورسوله".

لكي يتحقق التعبير عن الإيمان يتوجب الإقرار بقيمة الإنسان الذي خلقه الله , وإذا تم إنكار قيمة الإنسان بطل الإيمان

كل دين يخاطب الإنسان , ويأخذ بيديه نحو التعبير عن الفضائل

فاحفظوا قيمة الإنسان , لكي يعلو شأن الدين والأوطان!!

ثالثا: قيمة الكلام في أمة تُضام!!

الأمم القوية يتساوى عندها الفعل والكلام , والأمم الضعيفة يكون فعلها الكلام , وكلما تفوقت نسبة الكلام على الفعل , إزداد الضعف والإنهزام.

وهذا قانون حضاري يتحكم بالسلوك البشري الجماعي على مر العصور والأزمان.

فأمة العرب في زمن قوتها وهيبتها كان فعلها سبّاق لكلامها , وفي مراحل ضعفها تسيّد الكلام على الفعل , وما تعيشه اليوم هو غياب الفعل وكثرة الكلام , حتى صارت وكأنها أمة جعجعة وتبويق , لا أمة فعل وتحقيق.

وأمم الكلام ضعيفة متهالكة متهاوية على عروشها , وأمم الفعل هي القوية المهابة المطاعة المتمكنة على غيرها من الأمم التي لا تجيد سوى الكلام.

ولهذا فأن للكلام قيمة ودور وأثر في أمم الفعل , ولا قيمة له ولا معنى في أمم الكلام , لأنها تحسب الكلام مجرد من الفعل وأنه كلام وحسب يذهب أدراج الريح.

وعليه فأن ما يُكتب ويُنشر ويُذاع ويُبث من مقالات ودراسات وقصائد وتوجيهات لا تؤثر في الواقع , ولا تساهم بتغيير السلوك البشري , لأنها لا تلامس الأذهان ولا تمس النفوس , وتعجز عن التأثير في السلوك الفردي والجماعي , فيمضي المجتمع في دروب الهاوية السحيقة المروعة الخسائر والباهضة الأثمان.

وواقعنا العربي عموما يؤكد ذلك ويترجمه بمصداقية وإرادة إنهزامية إنكسارية نكساوية الطباع والملامح , ولا يمكنه القبول بغير ذلك , أي أن الطاقة الإنفعالية الخيباوية تتمترس في أعماق الرؤوس والنفوس , وتمنع تسرب الأفكار المنيرة والطاقات القديرة لصناعة الوجود الأفضل.

ولو نظرنا إلى أي مجتمع في أية دولة عربية , لتبين لنا وضوح ذلك , ولهذا تجد الذي يُقال ويُكتب لا يؤثر ولا يغير ولا ينفع , بل يتم أخذه في مسارات التفنيد والتصغير والإنكار , حتى أصبح كل شيئ مشوّه ومشوّش , فتعطلت الحركة وتجمدت الحياة أو إنحسرت وتآكلت.

ولا يمكننا أن نكون إن لم تستعيد الكلمة دورها وقوتها وأثرها في صناعة الحياة وتقويم السلوك , وتنوير الرؤى والتصورات الجاثمة على بصائر وجودنا الأليم.

فهل من روح كلمة وقوة عبارة وفصيح لغة!!

رابعا: قيمة الإنسان ورد فعل الإمتهان!!

الإنسان يجب أن يتحسس قيمته النفسية الذاتية لكي يساهم في التفاعلات الإيجابية والتواصلات الصالحة , الكفيلة بتعزيز الشعور بالقيمة والدور ومعنى الحياة وحرارة الوجود النابضة فيه , وعندما يفقد الإنسان قيمته ينتهي في متاهات مدمرة لِما فيه وحوله.

فالقيمة حالة نفسية بقائية أقوى من أية طاقة كامنة في البشر , تؤهله لإنجاز مشاريع كينونته وأسباب عبادته أو إنتحاره الذاتي والموضوعي.

ويمكن القول بأن معظم المخاطر التي تعاني منها البشرية لها علاقة بفقدان الإنسان لقيمته , أو إنكار قيمته ودوره ومعناه , وتحويله إلى شيئ أو رقم.

ومن المعروف أن ما يفرّق ما بين البشر والحيوان , هو هذا الشعور بالنفس , بل حتى الحيوان بحاجة للشعور بقيمته وأهميته ودوره , فالكلبة التي يجعلها صاحبها تشعر بأنها بلا قيمة وأهمية تغضب وتنبح وتتغير طباعها وملامحها وسلوكها , فتتحول من رؤوفة مداعبة إلى عدوانية الطباع والتفاعلات معه ,

وتجنب الرذائل , والإقرار بالإيمان بخالقه الرؤوف الرحيم

من أولويات الحفاظ على قيمة الإنسان في المجتمع , توفير الحاجات الأساسية , وتثقيفه وتعليمه والعناية الصحية به , وتوفير العمل الذي يصون كرامته ويساهم في رقي سلوكه وتنمية خلقه , وعدم الإعتداء على حقوقه , ومنحه حرية التعبير عمّا يراه ويعتقده

الأمم القوية يتساوى عندها الفعل والكلام , والأمم الضعيفة يكون فعلها الكلام , وكلما تفوقت نسبة الكلام على الفعل , إزداد الضعف والإنهزام

أمم الكلام ضعيفة متهالكة متهاوية على عروشها , وأمم الفعل هي القوية المهابة المطاعة المتمكنة على غيرها من الأمم التي لا تجيد سوى الكلام

عليه فأن ما يُكتب ويُنشر ويُذاع ويُبث من مقالات ودراسات وقصائد وتوجيهات لا تؤثر في الواقع , ولا تساهم بتغيير السلوك البشري , لأنها لا تلامس الأذهان ولا تمس النفوس

لا يمكننا أن نكون إن لم تستعيد الكلمة دورها وقوتها وأثرها في صناعة الحياة وتقويم السلوك , وتنوير الرؤى والتصورات الجاثمة على بصائر وجودنا الأليم.
فهل من روح كلمة وقوة عبارة وفصيح لغة!!

الإنسان يجب أن يتحسس قيمته النفسية الذاتية لكي يساهم في التفاعلات الإيجابية والتواصلات الصالحة , الكفيلة بتعزيز الشعور بالقيمة والدور ومعنى الحياة وحرارة الوجود النابضة فيه

وربما تهجم عليه وتعضه.

ولكل إنسان هوية ذاتية على ضوئها يرى قيمته ومعناه ومنطلقاته ونشاطاته في المحيط الذي هو فيه , ومعظم البشر يولدون وتتحدد هوياتهم بأنواعها منذ الولادة , كالديانة والإسم والشكل واللون والثقافة والطباع والموروث وغيرها الكثير.

وقد يتواءم الإنسان مع ذاته وموضوعه وقد يتخاصم معهما , ولا يمكنه أن يكون سعيدا إذا دخل في تصارعات مستمرة مع ما فيه وحوله.

ومن أخطر ما يواجه البشرية بسبب معايير القيمة والتقييم , أنها وبوسائلها التواصلية الإعلامية والموجهة , تجنح نحو الأحكام المسبقة والتعميم الآثم , والترويج لما يحط من قيمة الآخرين إعتمادا على معتقد أو شكل أو لون أو عمل أو حالة فردية هنا أو هناك , وتمضي ماكنتها الفتاكة بالإمعان بتجريد الإنسان من قيمته وإنكارها لدوره وخصوصيته وثقافته وما يمت بصلة إليه , وتحسبه رقما أو شيئا أو تصمه بحالة فردية شاذة حصلت هنا أو هناك ولها علاقة بما يعتقد ويرى , كما ترى هي لا كما يرى هو.

إن توجهات الأحكام المسبقة والتعميم الآثم والتوصيم القائم والإستهداف الظالم , والقول بتجريد الإنسان من حقوقه ومصادرة مصيره والنيل من حاضره ومستقبله , يدفع به للدفاع عن ذاته وموضوعه , والتمسك بقيمته وقيمه ودوره في الحياة.

كما أن إشاعة سلوكيات الرفض والحط من القيمة والشك بالإنسان , كلها آليات ذات تداعيات سلبية ومدمرة للكيانات الإجتماعية والوطنية والإنسانية.

وعليه فأن البشرية عليها أن تستيقظ وتعي بأن جوهر ما تعانية من المشاكل والصراعات يكمن في تغييب قيمة الإنسان وإحتكارها , وإعتبارها حق من حقوق هذا الشعب وليست حقا لذلك الشعب , وفي زمن التعري العولمي , سيؤدي هذا الكيل المزدوج إلى تداعيات مرعبة , لا علاقة لها بدين أو معتقد أو أية صفة أخرى , إنها ذات علاقة قوية وأساسية بشعور الإنسان بقيمته أو بإنعدام ذلك الشعور , فعلينا أن نسعى لإعادة القيمة للإنسان لكي يتحقق الأمن والسلام.

وهكذا فأن البشرية ربما ستقبل على تفاعلات شديدة إن لم يستعيد الإنسان كرامته وقيمته الإنسانية في أرجاء المعمورة كافة , فما يتحقق من تواصل وتفاعل كوكبي معاصر يدفع بالإنسان إلى وعي قيمته وإدراك دوره في الحياة , وعليه أن يكتسبهما لكي يكون غيورا على الأمن والأمان.

فهل من قدرة على إحترام قيمة الإنسان؟!!

القيمة حالة نفسية بقائية أقوى من أية طاقة كامنة في البشر , تؤهله لإنجاز مشاريع كينونته وأسباب عبادته أو إنتحاره الذاتي والموضوعي

لكل إنسان هوية ذاتية على ضوئها يرى قيمته ومعناه ومنطلقاته ونشاطاته في المحيط الذي هو فيه

معظم البشر يولدون وتتحدد هوياتهم بأنواعها منذ الولادة , كالديانة والإسم والشكل واللون والثقافة والطباع والموروث وغيرها الكثير

قد يتواءم الإنسان مع ذاته وموضوعه وقد يتخاصم معهما , ولا يمكنه أن يكون سعيدا إذا دخل في تصارعات مستمرة مع ما فيه وحوله

أن البشرية عليها أن تستيقظ وتعي بأن جوهر ما تعانية من المشاكل والصراعات يكمن في تغييب قيمة الإنسان وإحتكارها , وإعتبارها حق من حقوق هذا الشعب وليست حقا لذلك الشع

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa300-290421.pdf

شبكة العلوم النفسية العربية
نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس
الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/
المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com
الكتاب السنوي 2020 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار التاسع)
الشبكة تدخل عامها21 من التأسيس و 19 على الويب
21 عاما من الكدح... 19 عاما من الإنجازات
(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf